نفوس صادقة

عبادة بن الصامت

رضي الله عنه

يكفيك أن تكون صادقا مع الله ومع نفسك؛
لترى الحق واضحا، وتكون جريئا في التعامل معه

«نختار عبادة بن الصامت ».

هتف بها أحد الأنصار، مؤيدا اختيار عبادة بن الصامت مسئولا، ضمن اثنى عشر مسئولا عرفوا بالنقباء في الاجتماع التاريخي السري، الذي عقد في منتصف الليل في مكة في العقبة في السنة الثانية عشرة للبعثة.

ورغم الظروف العصيبة التى مرت بالاجتماع، والذي كان يعنى انكشاف أمره القضاء على المسلمين جميعا، فإن العملية الانتخابية لاثني عشر مسئولا سيتجهون على الفور صباحا للمدينة.. قد تمت بنجاح.

كان عبادة بن الصامت أحد الاثنى عشر مؤمنا الذين جاؤوا إلى الرسول ﷺ في نفس المكان في العام الماضي، ليبايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الأولى والتي سميت بيعة النساء..

والآن يكمل عبادة المسيرة، ويصبح مسئولا أمام مصعب بن عمير في المدينة عن ستة من الأنصار يحملون معا لواء الدعوة إلى الله..

وبمرور الأيام.. بدأ ولاء عبادة للإسلام يزداد..وبدأ يتحسس العدو من الصديق..

وبعد معركة بدر، والانتصار المبهر الذي حققه المسلمون على قريش.. أيقن عبادة أن العدو قريب منه جدا..

فرائحة الحقد والنفاق بدأت تملأ المكان..

وكان حبه للإسلام وولاؤه له، يدفعانه إلى أن يدخل في مواجهة صغيرة مع عدو بدأ يخرج من جحره..

اليهود.

«لابد أن ننقض حلفنا مع يهود بني قينقاع »!!

صاح بها عبادة في غضب بعدما رأى من محاولات يهود بني قينقاع من إثارة الفتنة في المدينة بعد انتصار بدر..

كانت عائلة عبادة في حلف مع يهود بني قينقاع..وظل اليهود طيلة عامين في المدينة يتظاهرون بحب المسلمين وودهم..

إلى أن جاء انتصار بدر..

فلم يستطع اليهود أن يكتموا مشاعرهم، وظهرت مشاعر الحقد والكراهية واضحة جلية، إلى الحد الذي جعلهم يفكرون في كيفية إحداث حركة شغب في المدينة..

هنا شعر عبادة أن حلفه مع اليهود، هو حلف ضد المسلمين.. ولم يكن الأمر يحتاج إلى الالتفات

إلى أي مصالح.. فلقد كان الولاء للإسلام قبل كل شيء..

وكان القرار حاسما..

فض الحلف مع اليهود..

كان تصرف عبادة تصرفا جعل آيات السماء تتنزل لتحيي عبادة، وتشجع معنى الولاء لله والرسول ﷺ:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٥٦]...

ولقد تولى عبادة الله ورسوله ﷺ وانضم لحزب الله الذي غلب وغلب..

فلم تكد تمضى سنوات قليلة.. حتى وفق الله رسوله ﷺ إلى انتصار سياسى عظيم في الحديبية في السنة السادسة للهجرة، ثم انتصار عسكري مذهل للعرب وللروم على السواء في مؤتة، ثم فتح لمكة بصورة سلمية بجيش قوامه عشرة آلاف مسلم.

ثم انتصار حنين في نفس العام بعد أن تضاعف الجيش إلى عشرين ألفا دفعة واحدة..

ثم انتصار بالرعب في تبوك في السنة التاسعة للهجرة..

وفي أثناء تلك السنوات.. أوكل الرسول ﷺ إلى عبادة مهمة تحتاج إلى ثقة وتقدير كبيرين..

مهمة جمع الصدقات وتوزيعها على المسلمين.

لاشك أن الرسول ﷺ كان يثق في إخلاص عبادة وحرصه على مال الله ودرجة مراقبته لله في التعامل مع المال.. وقبل توليه المسئولية كان يسدي إليه النصح والإرشاد:

«اتق الله.. لا تأت يوم القيامة ببعير له رغاء [١] ، أو بقرة لها خوار [٢] ، أو شاة لها ثواج [٣] ».

لم يكن عبادة يحتاج في هذه المهمة إلا للإخلاص، هو نفسه الإخلاص الذي دفعه يوما إلى نقض عهده مع يهود بني قينقاع في سبيل الله ورسوله ﷺ، والذي بشره الله بعدها، بأن حزب الله هم الغالبون ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٥٦].

لم ينسها عبادة أبدا..ولم ينس أنها جاءت بالحق..كل الحق.. فالانتصارات تتوالى انتصارا تلو انتصار..

لا أحد يستطيع أن يوقف المسلمين..لا أحد يستطيع أن يطفئ نور الله.

لقد نجح عبادة وأصحابه في أن يؤسسوا الدولة التي طالما حلموا بها..

---

(١) صوت البعير.

(٢) صوت البقرة.

(٣) صوت الشاة ، والمقصود أن الجميع سيشهد عليك يوم القيامة حتى هذه الحيوانات، ولقد قال له الرسول ﷺ ذلك تنبيها له لعظم المسؤولية.

وبعد وفاة الرسول ﷺ.. جاهد مع الخليفة الجديد أبي بكر الصديق ليعيد الاستقرار إلى المدينة بعد ثورة المرتدين الرهيبة..

وفي عهد عمر بن الخطاب.. وضع عبادة سيفه، لتبدأ مهمة جديدة له خارج المدينة، لا تقل أهمية وخطورة عن جهاده السابق في سبيل الله ..

تعليم المسلمين أمور دينهم...

هناك.. في الشام.

كانت مرحلة الخليفة عمر بن الخطاب مرحلة استقرار عسكري للدولة الإسلامية، بعد الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون على القوتين العظمتين في تلك الفترة: الفرس والروم..

كانت المرحلة الجديد تهدف إلى البناء الداخلي للأمة.. البناء العلمي والثقافي والحضاري..

ففي الشام.. بعث يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب يطلب منه أن يرسل إليه عددا من الصحابة ليتولوا القيام بعملية تثقيف ديني في الشام، فالبلاد حديثة عهد بالإسلام ولا تعرف الكثير عنه، والناس تحتاج إلى علماء يسألونهم ويرشدونهم..

واختار عمر لتلك المهمة ثلاثة من الصحابة:

معاذ بن جبل وأبوالدرداء و..

عبادة بن الصامت..

وكان مكان عبادة في حمص، ومن أول يوم، بدأ عبادة يمارس مهمته في تعليم الناس وإفتائهم بحكمة وبراعة، أشبعت أهل المدينة، وجعلت عمر بن الخطاب يفكر في أن يقلد عبادة منصبا في غاية الخطورة، وهو منصب القضاء.. في الوقت الذي تولى فيه معاوية بن أبي سفيان الحكم في الشام..

لم يكن عبادة -الرجل الذي تربى على يد رسول الله ﷺ، والذي عاش ليتعلم ويعلم فنون الفداء والتضحية والزهد في الحياة والتعلق بالآخرة ، والذي قطع هذا المشوار الطويل مع الرسول ﷺ مجاهدا في سبيل الله- يتحمل حالة الترف والبذخ التي يراها في الشام..

لم يتعود أن يرى ولم يحب أن يرى من يحب السلطان ويتشبث به..

لذا.. كان الخلاف مع معاوية عميقا وكبيرا، دفعه دفعا إلى ترك الشام والعودة مرة أخرى إلى أرض الأحبة والجهاد والزهد والذكريات..

المدينة...و

«ما الذي جاء بك يا عبادة؟!».

نطق بها عمر بن الخطاب في اندهاش بعد أن ذهب إليه عبادة لمقابلته، والذي لاحقه قائلا:

- بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نخاف في الله لومة لائم.

ولم يكد عبادة يجلس، حتى حكى إلى عمر بن الخطاب رأيه في معاوية وطريقة حكمه للشام..

كان عمر حكيما خبيرا بالنفوس على دراية كاملة بمعاونيه..

كان يعلم في عبادة الصدق والإخلاص والحمية لمبادئ الدين وتعاليمه التي جاهد من أجلها سنوات طويلة من عمره..

وكان يعلم في معاوية الذكاء والدهاء والحسابات السياسية..

وكان عمر يريد أن يجعل من هم أمثال عبادة، بجوار من هم أمثال معاوية..

وبمجرد أن انتهى عبادة من حديثه، فهم عمر القضية تماما، ونظر إلى عبادة نظرة تقدير واحترام قائلا:

- يا عبادة..ارجع إلى مكانك، فقبح الله أرضا ليس فيها مثلك.

وبكل الحزم والإصرار كتب رسالة إلى معاوية قال فيها:

- يا معاوية .. لا إمرة لك على عبادة.

كانت الرسالة حاسمة واضحة..

يا معاوية..ثقتي في عبادة لا حدود لها.. تجعلني أقول لك بصراحة: لا سلطان لك على عبادة...

يا له من تقدير عظيم من أمير المؤمنين عمر، لرجل يستحق بلا جدال..

وعاد عبادة عزيزا كريما يواصل رسالته في التوجيه والنصح والقضاء بالعدل بين الناس..

إلى أن جاء العام الرابع والثلاثين من الهجرة..وفي الرملة في فلسطين..

طلب الله لقاء عبادة بن الصامت.. فأجاب..

كنت على العهد يا عبادة..

بايعت.. فوفيت.. ولم تخش في الله لومة لائم.

* * *

دروس وتحليل

١ - تغليب الحق على المصلحة الخاصة مبدأ أساسي في الإسلام (عبادة ينهي تحالفه مع يهود بني قينقاع، بعد أن علم بنواياهم السيئة ضد المسلمين).

كثيرة هي المواقف التي يتعرض لها الإنسان كل يوم في عمله وفي حياته الشخصية وفي تعاملاته اليومية، والتي يتصادف فيها مواجهة الخطأ مع المصلحة الشخصية، وتولد مع تلك المواجهة ، لحظة من لحظات الصراع التي يعيشها كل إنسان ربما عدة مرات في اليوم الواحد، وهي لحظة تتجلى فيها مراقبة الله والخوف منه والحرص على إرضائه، مقابل التنازل عن مكسب مادي أوأدبي سيتحقق، ولكنه سيؤدي إلى ضرر لشخص آخر أو للمجتمع أو سيكون سببا لغضب الله.

إن تغليب الحق على المصلحة الشخصية، اختبار قد يكون يوميا لنا، ينبغي أن نتقن التدريب على النجاح فيه مهما تكن الضغوط والمكاسب. فنحفظ أنفسنا ومجتمعنا من الانهيار.. ونحظى بعظيم الأجر والثواب من الله.

٢ - محاسبة الحاكم أصل من أصول الإسلام (محاسبة عبادة لمعاوية بن أبي سفيان).

لا أعرف من أين أتى الذين يدعون أن الإسلام لا يعترف بالدولة المدنية بهذا الكلام؟ وهم يعنون بذلك أن الإسلام لا يقضي بمحاسبة الحاكم مهما أخطأ !. إن تاريخ السيرة وتاريخ الخلفاء الراشدين مليء بمعارضات للمسئولين والخلفاء والرسول ﷺ نفسه، كما أنه يشهد أيضا بعدم اعتقال المعارضين أو عدم النزول على رأي الشورى.

إن الإسلام ليس نظاما ضعيفا حتى يسحق معارضيه، والذي يفعل ذلك باسم الإسلام، فليتحمل وزر ما يفعله، ولكن الإسلام ليس مسئولا عن أخطاء من يخطئ في فهمه وتنفيذه، سواء عن عمد.. أو عن سوء فهم.

إن الإسلام دين حرية ومسئولية وحضارة ومحاسبة، ومبدأ الثواب والعقاب إحدى المسلمات التي رسخها الإسلام في المجتمع منذ نزوله، كما هو ثابت في الآيات والأحاديث.

٣- المؤسسة الناجحة هي التي تحافظ على أبنائها المخلصين رغم نقدهم للأوضاع التي يرونها خاطئة (عمر بن الخطاب يعيد عبادة إلى موقع مسئوليته مرة أخرى بعد خلافه مع معاوية).

دائما المؤسسات الضعيفة هي التي يضيق صدرها بالعاملين المخلصين فيها، الذين ينتقدون الأوضاع الخاطئة ويرغبون في إصلاحها بشتى الطرق، ويتركون المجال فسيحا للمنافقين دائمي الإشادة بالإنجازات وغض الطرف عن الأخطاء الواضحة، وهي أسباب كافية لانهيار أي مؤسسة تسعى لإرضاء رؤسائها بغض النظر عن مصلحة المؤسسة، أما المؤسسة الناجحة.. فهي المؤسسة

التي تسمع للآراء المعارضة البناءة وتدعو إلى إبداء الرأي، وتشجع أبنائها المخلصين على الاستمرار، وتساندهم عند الخطأ.

ولقد نفذ عمر بن الخطاب هذه السياسة بكل جرأة، ليشهد التاريخ الإسلامي بنجاح إدارته للدولة الإسلامية.. بصورة لم تتكرر بعده حتى الآن.

* * *